خطبة صلاة الجمعة 21/ 1/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(حب العطاء عند النبي ﷺ وكيف نتحلى به)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وقال سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

أخرج الإمام الترمذي عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكم إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِني مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُم أخلاقاً**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» وفي رواية البزار «**مكارم الأخلاق**».

هذه الخطبة السادسة عشرة في سلسلة من الخطب تناسب الزمان والاحتياج عنوانها: (أخلاق النبي ﷺ، وكيف نتحلّى بها).

وعنوان خطبة اليوم:

حب العطاء عند النبي ﷺ وكيف نتحلى به

أيها الإخوة:

سبق أنّ الخُلق هو اسم لصورة الإنسان الباطنة، كما أن الخِلْقة اسم لصورته الظاهرة. (لسان العرب).

والأخلاق تكون فطرية وتكون مكتسبة، فمن فطره الله على خلق حسن فليحمد الله، ومن لم يجده في نفسه فليتدرب على اكتسابه، وهذا الواجب العملي الأهم على مستمع هذه السلسلة.

أيها الإخوة:

حبّ العطاء واحد من أصول الأخلاق التي ترجع إليها كثير من الفضائل الحسنة والخلال الحميدة والأخلاق العالية.

إكرام الضيف، ومساعدة الفقير، والحنو على الضعيف، والنفقة على الأولاد، وكفالة اليتيم، وتعليم الجاهل، وقضاء حاجات الخلق، والشهادة في سبيل الله، كلها خِلال حسنة منبعها حب العطاء.

عندما تعينُ رجلاً كفيفاً، أو تَبَرُّ والداً رؤوفاً، أو تساعدُ محتاجاً عفيفاً، أو تعلمُ طالباً حصيفاً، فاعلم أن منبعَ ذلك خلقُ حب العطاء.

عندما تحب أن يرقى طلابُك، ويهنأ أولادُك، وينعمَ بالخير عمّالُك، ويذهبَ الألمُ عن مرضاك، وتتيسرَ معاملةُ المراجعين لك، فاعلم أنّ منبع ذلك خلقُ حب العطاء.

فحبّ العطاء أصلٌ ترجع إليه مجموعة فروع وسلوكيات خُلُقية محمودة، ويشمَلُ العطاءَ من المال والعطاء من العلم والعطاء من الجهد، ويرتقي ليصل إلى بذل الروح شهادةً في سبيل الله.

وإذا كان حديث اليوم عن حب العطاء عند النبي ﷺ وكيف نتحلى به، فإليكم هذه المواقف من السنة المطهرة.

1-أخرج ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به.

وروى عن ربيعة بن عِبَاد قال: إني لغلام شاب مع أبي بمنى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني، حتى أبيّن عن الله ما بعثني به. قال: وخلفه رجل أحول وضيء، له غديرتان عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا

اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه.

قال: فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب، أبو لهب.

هذه صورة من صور حب العطاء عند النبي ﷺ إذ يدعوهم للإيمان ليقدم لهم سعادة الدارين ويتحملُ في سبيل ذلك أذى المؤذين.

2- وأخرج الإمام البخاري عن سهل رضي الله عنه قال: جاءت امرأة ببردة، قالت: يا رسول الله، إني نسجت هذه بيدي أكسوكها، فأخذها رسول الله ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فجسها رجل من القوم، فقال: يا رسول الله، اكسنيها، قال: «نعم» فجلس رسول الله ﷺ ما شاء الله في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، سألتَها إياه، وقد عرفت أنه لا يرد سائلاً، فقال الرجل: والله ما سألتها إلا لتكون كفني يوم أموت، قال سهل: فكانت كفنه.

إنها صورة من صور حب العطاء عند النبي ﷺ إذ يؤثر غيره بما هو محتاج إليه.

3- وأخرج البخاري أنس بن مالك قال: «كانت الأمة من إماء المدينة – والعبد- لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتَنْطَلِقُ به حيث شاءت»، وأخرج البيهقي في الآداب عن عبد الله بن أبي أوفى في صفة النبي ﷺ قال: «ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته»

إنها صورة من صور حب العطاء عند النبي ﷺ إذ يقضي حاجات الناس الضعفاء وغيرِهم.

والحاصل أن حب العطاء خُلُق النبي ﷺ، وهو معروف به، والمتوقع أن يكون حب العطاء خلقَك، وأن تكون معروفاً به.

شاب وحيدُ والديه مفتوحةٌ له أبواب الدنيا على مصراعيها، ماتت أمه قبل سنوات فقصر نفسه على خدمة أبيه المريض ليدخل السرور عليه وينال بره، يطعمُه ويسقيه، يضاحكه ويؤانسه، تاركاً حظوظ نفسه وراء الوراء، فيرضى الوالد ويرضى الله برضاه.

حب العطاء خُلق نبيل تجتمع عنده خصال حميدة وأخلاق فاضلة، وإن الله خلق خَلقاً من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يعطون الخلق تقرباً للخالق، فمن استطاع أن يكون منهم فليكن.

حاصلة على شهادة الدراسات العليا في إدارة الأعمال ومديرة قسم مهم في إحدى الشركات، أنجبت طفلة مريضة ففرغت نفسها لرعايتها وتربيتها وتعليمها، وقد بلغت البنت اليوم التاسعة عشرة

من عمرها، ترْمُقها أمها بعيونها وتلحظها برعايتها ولا تغفل عنها طرقة عين، وفضلاً عما تركته هذه الأم من عملها ومنصبها الوظيفي فقد تركت كثيراً كثيراً من حظوظ نفسها في الراحة والترفيه ترجو بذلك رضا ربها برعاية بنتها.

حبّ العطاء خلق نبيل تجتمع عنده خصال حميدة وأخلاق فاضلة، وإن الله خلق خَلقاً من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يعطون الخلق تقرباً للخالق، فمن استطاع أن يكون منهم فليكن.

لا يُعرَف عن مشاهير شيوخ إقراء القرآن الكريم في الشام، وكبرائهم أنهم تقاضوا أجرًا ماديًا على إجازة أو إقراء أو تعليم القرآن الكريم، مع أن الواحد منهم ربما جلس ستين أو سبعين سنة يعلّم القرآن يومياً في مدرسته ومسجده وبيته، وتخرَّجَ به العشرات من الحفاظ والمجازين والمتقنين، يرجون بذلك رضى ربهم بتعليم الخلق كتاب الحق.

حب العطاء خلق نبيل تجتمع عنده خصال حميدة وأخلاق فاضلة، وإنّ الله خلق خَلقاً من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يعطون الخلق تقرباً للخالق، فمن استطاع أن يكون منهم فليكن.

شاهد شابان سوريان كانا يمشيان في أحد شوارع الصين رجلاً مُسنّاً يمشي متكئاً على عُكازه، فوقفا يساعدانه حتى عبر الطريق ثم مشيا معه على الرصيف، ولما وجداه متعباً من المشي مثقلاً بأوجاعه حمله أحدهما حمل الأم لولدها وأوصله حيث أراد.

صادف أن كانت إحدى وسائل الإعلام الصينية تصور برنامجاً في ذلك الشارع فرصدت المشهد كاملاً، وضجَّت به وسائل إعلامهم، وراحت تقابل الشابين وتتحدث عنهما وإليهما... وما درى القوم أن هؤلاء رباهم رسول الله ﷺ على حب العطاء.

حب العطاء خلق نبيل تجتمع عنده خصال حميدة وأخلاق فاضلة، وإن الله خلق خَلقاً من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يعطون الخلق تقرباً للخالق، فمن استطاع أن يكون منهم فليكن.

أيها الإخوة:

أهم ما في هذه الخطب الناحية العملية فيها وهي كيف ننمي حب العطاء في أنفسنا، كيف نُطَهِّر النفسَ من رذائل الأَثَرة والشُّح، كيف نتدرب على البذل للآخرين وعطاء الآخرين وإيثار الآخرين؟

أربعةٌ تنمي خلق حب العطاء عندك: كثرة ذكر الله، وصحبة أهل الله، ومجاهدة النفس، ولزوم مجالس العلم.

أولها: الإكثار من ذكر الله: لأن من أكثر من ذكر الله أحبه، ومن أحبه أحب خَلْقَه، فبادَرَ إلى عونهم ومساعدتهم وعطائهم. لأن المنسوب إلى المحبوب محبوب، والمنسوب لجانب الحق تنبغي مراعاة نسبته.

ثانيها: صحبة أهل الله: لأنهم قوم درَّبهم القرآن وسيدنا محمد ﷺ على حب العطاء فأعطوا، وحبَّبهم الذكرُ بخلق الله فبذلوا.

ذكروا أن شيخاً من علماء المسلمين في الهند كان يعمل في بلدة في مدينة (رامبور) الهندية براتب زهيد، فقدّم إليه حاكم الولاية الإنجليزي وظيفة عالية في كلية بريلي (وهي في مدينة هندية أخرى) راتبها يزيد خمسين ضعفاً عما يتقاضاه الشيخ في بلدته، ووعده بزيادة الراتب كل حين، فاعتذر الشيخ عن قبوله وقال: إني مرتاح بعملي في بلدتي.

فتعجب الإنجليزي وقال: ما رأيت كاليوم: أنا أقدم راتباً يزيد على راتبك الحالي بأضعاف الأضعاف، وتترك الأضعاف المضاعفة وتقنع بالنزر اليسير! فتعلل الشيخ بأن في بيته شجرة وهو مغرم بثمرها وأنه سيحرمها إذا أقام في بريلي.

ولم يفطن الإنجليزي بعد إلى مقصود الشيخ. فقال: أنا زعيم بأن هذا الثمر يصل إليك من رامبور إلى بريلي، فتشبث ثالثة بأن حوله طلبة وتلاميذ يقرؤون عليه في بلده فلو انتقل إلى هذه الوظيفة انقطعت دروسهم، ولم ييأس الإنجليزي المناقش من إقناعه فقال: ولكنك ستعلم طلاباً آخرين في بريلي، وهنا صاح الشيخ قائلاً: وماذا يكون جوابي غداً إذا سألني ربي: كيف تركت طلاب العلم من دون معلم ومضيت وراء المال لتجمعه؟

وهنا بُهت الإنجليزي وسقط في يديه وعرف نفسية العالم المسلم، وقضى الشيخ حياته معلماً في بلدته براتب زهيد.

إنَّ من يصحب أهل الله من العلماء العاملين والصلحاء الذاكرين يدربونه على حب العطاء تقرباً لرب الأرض والسماء.

ثالثها: مجاهدة النفس: لأن النفس تحب الاستئثار بالخير وحدها دون الآخرين، فعليك بتدريبها على بذل الخير لغيرك وبمخالفتها إن دعتك لهضم حقوق غيرك.

درِّبها على العطاء والكرم فإنما الحلم بالتحلّم، وإنما العلم بالتعلّم، وإنما الكرم بالتكرّم.

ربما دعتك إلى حبس ملخصات جيدة صنعتها للامتحان الجامعي عن أصدقائك، فخالِفها وقدِّم هذه الملخصات لأصحابك لينتفعوا بها وتنتفع.

ربما دعتك إلى أخذ العقار الأفضل من إرث أبيك دون إخوانك فجاهدها وأعط إخوانك الأحسن وخذ أنت دون ذلك.

ربما دعتك للجلوس أولاً على الطعام لتتناول نصيبك الأوفى من الطعام الأشهى فجاهدها وقدِّم من هو أكبر منك قدراً وسناً إكراماً له ثم قدِّم من هو أصغر منك سناً وقدراً عطفاً عليه.

ربما دعتكِ إلى نيل حقك كاملاً في حياتك الزوجية وإلى عدم تنازلك عن قليل أو كثير من حقوقك، فخالفيها وآثري زوجك وأولادك وأعطهم يعطِك الله.

من أراد أن يتدرب على حب العطاء وجب عليه مخالفة النفس ومجاهدتها.

رابعها الأخير: لزوم مجالس العلم: لأنَّ العلم ينبيك بأن من أعطى لله وبذل لله وخدم خلق الله تقرباً إلى الله، كان في عناية الله، وكافأه الله مكافأة من جنس عمله؛ فيسر أمره لتيسيره أمور الخلق، وقضى حوائجه لقضائه حوائج الخلق، وأعطاه مما عنده لأنه يعطي العباد مما عنده.

والحاصل من أراد أن يتخلق بخلق حب العطاء فعليه بكثرة ذكر الله وصحبة أهل الله ومجاهدة النفس ولزوم مجالس العلم.

أيها الإخوة:

أكثروا من الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ فإنه من صلى عليه صلى عليه ومن سلم عليه سلم عليه، وتدارسوا مع من حولكم حديثه ﷺ وأخلاقه، وسنته وسيرته، ليكون النبي حاضراً فينا وتكون سنته ماثلة بيننا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]

والحمد لله رب العالمين